اللغة الشعرية عند محمد مهدى الجواهري

هدى مطوري

جواد سعدون زاده

على سپهيار

Department of Arabic language, Abadan branch, Islamic Azad University, Abadan, Iran

المقدمــة :

طلـع الجـواهري علـى القـرن العشـرين مـن بيـت أسـواره الـدين وأعمدتـه العلـم والأدب. هـذا الشـاعر، الثـائر، العاشـق، الجـوال، أنشـد مـا يقـارب عشـرين ألـف بيتـاً بعـد أن صـال وجـال، وكابـد وناضل، ونفى وتشرد، عاقر الخمرة، غازل النساء وجاب البلاد.

نحـن مـن خـلال البحـث سـنتطرق الـى جوانـب مـن شخصـيته مـن خـلال أغراضـه الشـعرية التـى حصرناها فى:

1-المدح 2- الرثاء 3-الوصف 4- الشعر السياسى5- الغزل

و خلال لغته الشعرية نعالج :

1- ظاهرة الرفض والتمّرد عند الجواهري. إن التمرّد من أهم خصائص الجواهرى

2- الجـواهر فـي المـرأة والحـب والغـزل : لا نغلـو إذا قلنـا أن النسـيب والغـزل والحـب يكـاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي

3- المـرأة عنـد الجـواهري فـي دائـرة الإرتبـاط العـاطفي : أمـا المحـور الثـاني مـن علاقتـه بـالمرأة، كيـف للجـواهري صـاحب الأسـرة العريقـة بالـدين والوجاهـة الاجتماعيـة، أن يميـل مـع العاطفة، أن يعشق، أن يحب، والمجتمع والبيئة هو مجتمع النجف.

و للغـة الشـعرية خصائصـها التـي تتميّـز بهـا عـن لغـة النثـر: خصـائص لغـة الشـعر تتمثّـل فـي أمـرين أولهمـا : الخصـائص الفنيـة (الـوزن و القافيـة و التجربـة الشـعرية و الـربط الفنـي بـين الشكل و المضمون) و ثانيهما : الخصائص التركيبية (الصرف و النحو).

ومهمة الشاعر القادر على أن يتحسس تاريخ الكلمات إنما تتلخص في سعيه الى استعمال الكلمات كما لم تستعمل من قبل ، ومنحها بذلك حياة جديدة

يمتاز الجواهري بثراء لغوي يظهر بوضوح لقاريء ديوانه منذ الجزء الأول، و لايمكن له أن يتجاهله، أو يغفل وجوده، حتى ليشعر أنّ ديوانه لغة، و أنه خلق تشكيل هذه اللغة، فللجواهري مَلَكة يستطيع بها أن يتخير من ألفاظ اللغة ما يرى أنها أبعث على إثارة المشاعر و أفعل في نفس السامع.

ولد محمد مهدي الجواهري عام 1903م بمدينه النجف الأشرف، أي تلك البقعة الرملية الممتدة من صحراء الجزيرة العربية الواقعة على بعد أميال من أرض الكوفة الشهيرة. فقد كانت وما تزال مركزاً دينياً وسياسياً، واجتماعياً، وأدبياً تضخ للبشرية كل حين برجالات وشخصيات لا يمكن اخفاء آثار أصابعهم على أهم الأحداث والوقائع السياسية والأدبية والثقافية في العراق والعالم الاسلامي وتطوراتها، وكذلك لايمكن اغفال دورها في بناء صرح الفكر الانساني بشكل عام. لقد كان الجواهري ابن النجف الاشرف ومن سلالة أسرة متقدمة عمقاً بالغاً في التأريخ الديني والسياسي والاجتماعي للنجف. ولد في بداية القرن العشرين ورحل في آخره، خاض غمار أحداث قرنٍ صعبٍ و معقد وحافل بالعجب العجاب، بدأ بالقريض وهو في سن مبكر، اشتهر وملك الدنيا وهو لايزال شاباً في مقتبل العمر. قيل عنه الكثير بدءاً من نابغة الشعر العربي، ومروراً بشاعر العرب الأكبر، وأمير الشعراء بعد شوقي، ووارث الشعر العربي وحافظه، ومتنبى العصر وربّ الشعر، وانتهاءً بألقاب وأوسمة أدبية قلّما حصلت وتحصل لشاعر عربي، والحق لايمكن الظن بأن البنى التحتية والأساس في كل هذه التسميات والأنواط غير ثابتة في أرض صلبة، خصبة معطاء، والا كيف صح أن اجتمعت عقول أدبية راسخة، ونجوم متألقة في دنيا الأدب يشار إليهم بالبنان لتعترف بقمة الجواهري، ولتهدي إليه بسخاء ما لا ينحدر اليه السيل ولا يرتفع اليه الطير من المنزلة والعظمة. والواقع أن الاحاطة بشاعر كالجواهري صعب جداً وبيان قراءة خاصة بشخصه وأدبه تمتاز بالشمول والإلمام المطلوبين أصعب. فالكتابة عنه بمثابة الكتابة عن مائة عام عاشها بآلامها، وأفراحها بوعي ونبوغ يحسد عليه ، وهي كذلك تعني سبر أغوار آخر شاعر كلاسيكي، أصولي حفظ الشعر العربي من التيه والضياع واكسبه حداثة لا تزول معها أصوله الأولية من الجاهلية الى يومنا هذا، ومما يزيد الأمر صعوبة ندرة المصادر في هذا الشأن والموجودة منها قد لا يفي بالغرض المطلوب.

الجواهري الصحفي

إشتغل في أول حياته بالتعليم ثم جذبته الصحافة إليها و عمل في الصحافة منذ أربعين عاماً. «في عام 1930 م أصدر أوّل جريدة رسمية هي جريدة «الفرات» و قدر صدر منها عشرون عدداً ثم الغي إمتيازها بقرار الحكوميّ فألمه ذلك كثيراً و في سنة 1931 عيّن معلّماً في مدرسة المأمونية ثم إنتقل بعد ذلك إلى ديوان الوزارة رئيساً لديوان التحرير».

« و في سنة 1936 م أصدر الجواهري صحيفة «انقلاب» لكنّ مصير هذه الصحيفة لم يكن بأفضل من سابقتها، فقد دافع الجواهري في صحيفته عن فقراء الطائفة اليهودية في بغداد التي احتجت على ارتفاع اشعار اللحوم الخاصة بهم و ساند قضيتهم مما اغضب ذوو النفوذ و السلطة فعطلوا صحيفته، و حكموا عليه بالحبس ستة أشهر».

«بعد فشل الإنقلاب أصدر جريدة ثانية هي : «الرأي العام» لكنّ هذه الجريدة ليضاً لم تكن أحسن حظاً من الجرائد التي سبقتها. و في سنة 1943 م عطّلت الحكومة الجريدة المذكورة. فانسحب الجواهري رسمياً من حزب الإتحاد الوطني و منحته الحكومة سنة 1946 م امتيازاً جديداً لجريدة بإسم «صدى الدستور»، و وصل الجواهري حينئذ إلى المجلس النيابي ممثلاً لمدينة كربلاء لكن بما أنه نظم لمعارضة معاهدة بور تسموت إستقال من مجلس النواب فعطلت جريدته».

«و في سنة 1953 م أصدر الجواهري صحيفة الجهاد لمدة ثمانية أشهرٍ، بعد ذلك أضطر إلى مغادرة العراق و اللجوء إلى مصر ثم إلى سوريا في قيام ثورة 14تموز – 1985 م و سقوط الملكية و اعلان الجمهورية في العراق. عاد الجواهري وقتئذٍ إلى بغداد، و أصدر جريدته «الرأي العام». ثم أختير رئيساً لإتحاد الأدباء العراقيين، و بعدها نقيباً للصحفيين. لكنّ هذه الفترة لم تدم طويلاً، ففي أواخر عام 1960 م غادر بغداد متوجهاً إلى البلدان الإشتراكية، متبرماً من المضايقات، و غاضباً من الإهانات التي كان يتعرّض لها لتأييده و مساندته للتيار اليساري هناك. و هكذا تعطّلت آخر صحيفة في حياة الشاعر محمدمهدي الجواهري و إلى الأبد».

أغراضه الشعرية :

نحن من خلال البحث سنتطرق الى جوانب من شخصيته من خلال أغراضه الشعرية التي حصرناها فى:

1- المدح: مدَحَ الجواهري الكثيرين فلم يكن يهدف من ورائه مطامع مادية أو مواقع اجتماعية بل يخرج الى آفاق خارج الممدوح، أو يقصد افادة الممدوح وتحذيره أو توجيهه بالوجه الذي يريده.

2- الرثاء: فقد أجاد فيه وأغلبه يتخذ طابعاً سياسياً تهكمياً، أو انتقاداً .

3- الوصف: انه مارس الوصف ورسم صور النهر والنخيل والشواطىء والجبال فقدم لوحات زاهية في سماء الشعر العربي.

4- الشعر السياسي: يعتبر الغرض الأكبر حجماً في ديوانه، فالسياسة في مذهبه لا تعني سوى، الخوض في غمار الأحداث التي ترتبط بمصير الجميع.

5- الغزل: لـه وجهـة نظـر خـاص، تخـتص بـه فـي نظراتـه للمـرأة. رغـم أن غزلـه المكشـوف أثار ضجةً، و جدلاً وتساؤلاً كثيرة، فلقد كان يكمن وراءه بواعث ودوافع.

آثـاره الأدبيــة

أصدر الجواهري :

1- «حليــة الأدب» ســنة 1923، و هــو مجموعــة معارضــات لمشــاهير شــعراء عصــره كأحمـد شـوقي و إيليـا أبـي ماضـي، و بعـض السـابقين، و كلسـان الـدين بـن الخطيـب و إبـن التعاويذي.

2- «بين الشعور و العاطفة» سنة 1928.

3- «ديــوان الجــواهري» الجــزء الأول ســنة 1935، و الجــزء الثــاني ســنة 1945، و الجزء الثالث سنة 1953.

4- «بريد الغربة» سنة 1965.

5- «بريد العودة» سنة 1969.

6- «أيها الأرق» سنة 1971.

7- «خلجات» سنة 1972.

8- «ذكرياتي» مجلدين ، سنة 1988.

اللغة الشعرية

لغة الشعر أو اللغة الشعرية عند جون كوين هي : «الانزياح عن لغة النثر باعتبار أن لغة النثر عنده توصف بأنها لغة الصفر في الكتابة»، و الانزياح عنها يعد دخولا في اللغة الشعرية التي تعني «كل ما ليس شائعاً و لا عاديّاً و لا مصوغاً في قوالب مستهلكة » وهكذا فالشعر يعتبر خروجا عن اللغة العادية أو المعيارية، فهو يهدمها ليعيد بناءها من جديد.

و التجربة الشعرية في أساسها تجربةُ لغة كما يقول الدكتور سعيد الورقي:

«و الشعر هو الإستخدام الفنيّ للطاقات الحسية و العقلية و النفسية و الصوتية للغة. و لغة الشعر هي الوجود الشعري الذي يتحقق في اللغة إنفعالاً و صوتاً و موسيقياً و فكراً، إذن ، لغة الشعر هي مكونات القصيدة الشعرية من خيال و صور موسيقية و مواقف إنسالنية بشرية».

و من هنا يتّضح لنا الفرق بين الشعر و لغة النثر و ترى أنّ النقاد العرب ميّزوا بين الشعر و النثر و ذلك من ناحية الألفاظ ، بِوَضع صفات خاصة لكلّ منهما. و في ذلك قول أحد الأباء القدامى : «إنّ من الألفاظ ما يُعاب استعماله نثراً و لا يُعاب نظماً».

فهو يرى من خلال هذا القول أنّ هناك ألفاظاً خاصّة بالشعر و الأخرى بالنثر.

و للغة الشعرية خصائصها التي تتميّز بها عن لغة النثر: «خصائص لغة الشعر تتمثّل في أمرين أولهما : الخصائص الفنية (الوزن و القافية و التجربة الشعرية و الربط الفني بين الشكل و المضمون) و ثانيهما : الخصائص التركيبية (الصرف و النحو)».

والاسطورة عند الجواهري دائماً تتعلق بعناصر الجمال من اللغة والبلاغة وهي مفاهيم تشكل الخلاصة لنتائج دقيقة في الصياغات الاسطورية في البحث عن خصائص عديدة تتجاوز في محركاتها .. خصائص اللغة والبلاغة.
والاسطورة عند الجواهري كائن حي ومتحرك يتكون من عدة تشكيلات في الوحدات الاجتماعية والصوتية والنحوية والصرفية والبلاغية والدلالية حيث يكون (المفهوم اللغوي) مفهوم اولي لعدة عينات وكيانات لمنطق السني ، وهو المقوم الجدلي للكليات ، لكنه خارج اطار عملية الوعي الإرادي .

واللغة عن الجواهري تقوم على اشكالية عقلية وحيثيات منطقية قائمة على النفس البلاغي والثروة اللغوية جاءت عبر الدراسة الدقيقة لمكونات النص الشعري وتعاليقه المتجددة نلاحظ ان هنالك مراحل في طريقة البناء الفكري تعتمد على المنطق الروحي وعملية التفكير ومضامينها وما يتعلق بهذا التفكير من حس اجتماعي وسياسي دفين وعبر مضامين منطقية تحددها التشكيلات الاسطورية.

يقول الجواهري :

مرحباً يا أيها الأرق

فرشت أنا لك الحدق

لك من عيني منطلق

اذا عيون الناس تنطبق

لك زاد عندي القلق

واليراع النضوو والورق

ورؤى في خالة القدر

عتقت خمرا لمعتصر ...

والعلاقة بينهما.

إن اعتماد الجواهري على امتلاكه للحس التراثي والتشكيل الحداثي راح يعتمد في نسجه الشعري على منطق الخلق البارع للاسطورة في صورة حسية اعتمدت المنطق في قياسها وفي علاقة وصيغ (فينومينولوجيا) فالجواهري اعتمد الفحص المستمر حتى للأسس التي تنحو المنحنى العلمي والمعرفي لقيمة المنطق في نظرته الى الواقع الاجتماعي المعاش.

يقول الجواهري:

أنا عندي من الأسى جبل

يتمشى معي وينتقل

أنا عندي وان خبا أمل

جذوة في الفؤاد تشتعل

انما الفكر عارما يظل

ابد الآبدين يقتتل

قائد ملهم بلا نفر

حسرت عنه راية الظفر

والملفت للنظر أن الجواهري ينشد عملية التكرار وهذا يأتي تأكيداً للصياغات الصورية والايقاعية ، فهو منطق من العفوية الحسية الناضجة في شبكة القصيدة ، وهذا الموضوع قد ساعد في عملية التوتر والشد العاطفي الذي يأخذ شكله المتصاعد ليعطي اللغة الشعرية معياراً من النمو المتزايد والذي أَشره (دي سوسير) عبر الدراسات المتعاقبة للصيغ اللغوية وعبر الكشف الدقيق لقوانين البنية الشعرية ومداخلاتها الاسطورية داخل الانظمة الالسنية والصوتية وداخل نظم من المفردات الشعرية التي تجمعها مخيلة الشاعر لعدة من الصياغات والاطر الجديدة في القصيدة .

و النظرية الشعرية عند الجواهري هي عملية رفد وتغيير للمنطق الشعري في العمود المتجدد بموضوعاته الصورية والاسطورية وهذا خلاف النظرية التي تقول : (بمعزل عما يتأثر به) واعتبار الاعمال الشعرية اشياء مجردة عن تفاعلاتها وعلاقاتها (بالزمان) واعتبارها كائنات لا تربطها اية صلة و بأي شيء واصحاب هذه النظرية هم (بلاكمور ، والن تيب ، وكلينش ، بروكس).

نقـول ان الحـافز الفكـري والاجتمـاعي عنـد الجـواهري عبـر التكـوين الرئيسـي فـي المنظـور الشـعري ... وهـو عنصـر مـن العناصـر المهمـة فـي بنـاء الحكايـة والصـياغة الاساسـية للحـدث الشعري وكذلك بالروابط السببية التي تنظم الحدث والمتن الشعريين .

الكتابة الشعرية و تاريخ الكلمات

الكتابـة الشـعرية فـي جانـب كبيـر منهـا هـي إحسـاس بتـاريخ الكلمـات . ومـا نقصـده بتـاريخ الكلمـة فـي لفـة معينـة هـو مـا جـرى لهـا مـن تنـوع وتلـون ، تبعـا لاسـتعمالاتها المتنوعـة والمتعـددة ، وخصوصـاً فـي الشـعر، أو لنقـل فـي الأدب ، حيـث يتسـنى للكلمـات أن تخـرج مـن الحـدود الدلاليـة التي رسمتها لها المعاجم.

ومهمـة الشـاعر القـادر علـى أن يتحسـس تـاريخ الكلمـات إنمـا تـتلخص فـي سـعيه الـى اسـتعمال الكلمـات كمـا لـم تسـتعمل مـن قبـل ، ومنحهـا بـذلك حيـاة جديـدة ، أو بـالأحرى جعلهـا كائنـات جديـدة . بهذا تكون مهمة الشاعر صعبة وخلاقة في آن.

"اللغـة هـي مـادة الأدب "، كمـا تقـول النظريـات الأدبيـة الحديثـة واللغـة هـي كلمـات ، قبـل أن تكـون عبـارات أو جمـلا أو تراكيـب . والكلمـات التـي يتخـذها الأديـب مـادة أوليـة لبنـاء قولـه أو نصه.

لكـل كـلام _ مقـولاً كـان أو مكتوبـا _ مفاتيحـه ، أو كلماتـه الأساسـية التـي تحكـم مقاطعـه وأجـزاءه . وفـي النصـوص المكتوبـة تتجلـى العلاقـة بـين الكاتـب وكلماتـه الأساسـية أكثـر متانـة ورسوخا منها في الأقوال المرتجلة بين القائل وكلماته .

الاسـتعمال هـو الـذي يجـدد الكلمـة ، هـو الـذي يعطيهـا حيـاة جديـدة كلمـا وضـعها فـي سـياق جديـد. هـذا مـا أوضـحه لنـا عبـدالقاهر ، موحيـا بـأن القيمـة الجماليـة للعبـارة الأدبيـة ، وخصوصـا الشـعرية ، إنمـا تتـأتى مـن حسـن اسـتعمال الكلمـات فيهـا. وهـذا الاسـتعمال هـو الـذي يجعـل مـن كلمـات معينـة كلمـات أساسـية أو كلمـات مفـاتيح ، ويتـرك للكلمـات الأخـرى الـى جانبهـا أن تأخـذ من وهجها.

فالقراءة كما يقول:

«هـي فـن اليقظـة إلـى الكلمـات ، وهـي تجربـة خاصـة نعيـد فيهـا تركيـب الكلمـات المألوفـة بوجه يجعلنا نتبين فيها بعض الغرابة ، ونستبقى قدراً من الدهشة التي عفا عليها الألف».

إن قـراءة الشـعر اعتمـادا علـى مقولـة الكلمـات المفـاتيح هـي نشـاط ذوقـي فـي الدرجـة الأولـى ، نشـاط يوظـف الخبـرة والمعرفـة لصـالح المـزاج الشـخص ، أي إنـه يوظـف مـا تـم اكتسـابه أو تعلمـه لصـالح مـا يجـري تلمسـه أو الحـدس بـه أو اكتشـافه ، هـذه القـراءة التـي تتفلفـل عميقـا بـين مكونـات اللفـة الشـعرية هـل هـي القـراءة التـي ألـح عليهـا عبـدا لقـاهر الجـر جـاني؟ وهـل هـي القـراءة التـي وصفها ريتشاردز بأنها فن اليقظة الى الكلمات ؟

الألفـــاظ

كما تبين من خلال ما سبق، أنّ الجواهري لم يكن بعيداً عن حالات التحوّل عن الشكل النموذج للقصيدة العربية، فجرّب الخروج على أوزانها، و تحرّر من الالتزام بقافيتها، لكنّه آثر البقاء ثم تكوسينها الأساس.

و كذلك الأمر بالنسبة إلى قاموسه اللغوي، فقد حافظ الجواهري على حبّه للقصيدة العربية القديمة في اختياراته اللفظية، فكان يسهم في رسم صورته المعبّرة عن واقع الحداثي بألفاظ قديمة مأخوذة من اللغة العربية الفصيحة التي يصعب فهمها في الوقت الحالي.

و الأمثلة على ذلك كثيرة، نورد بعضاً منها :

يصيحُ على المدقعين الجياع أريقوا دماءكم تطهموا

و يهتف بالنّفر المهطعين أهينوا لئامكم تكرموا

و قوله :

الآكلين بلحمي سُمَّ أغربَةٍ و غصَّةً في حلاقين الشواهين

و :

نُبِّئتُ "شرذمة الأذناب" تنهشي بمشهد من "رُماة الحي" من "ثعل"

و كلمات مثل : (المهطعين، حلاقين، ثعل) كلمات تستعصي على فهم الكثيرين دون الرجوع إلى القاموس .

و من يقرأ القصائد التي ضمّنت هذه الصور ككلّ يشعر بأن هذه الألفاظ أعطت إيحاءً لايمكن للفظة أخرى أن تعطيه في الصورة نفسها ، حتى لنعتقد أن الصورة أخذت قوّتها و تأثيرها من هذه المفردات.

و قد تمكّن الجواهري في أكثر من موضع في صوره، أن يكسب هذه الألفاظ حداثتها، بتضمينها معانٍ تتناسب مع المضمون الحداثي للكلمة، و سياق المعنى العام، و من ذلك قوله:

يقرون جائعة البلاد نفوسهم فلها لحومٌ منهم و عظام

و يرونَ ضيفهم الكرامة تزدري و الحقّ يغصبُ و الديار تضام

فاستخدامه للفظة (يقرون)، ضمن الصورة، خفف من قدمها، و أظهر معناها، «فالقرى عند السباب الجديد بذل نفوسهم و دمائهم في سبيل حرية الوطن و المواطنين، و كان العربي يقري ضيفه، هنا فقد صادر (الكرامة)، و (الحق)، و (الديار)».

اللغـــة

يمتـاز الجـواهري بثـراء لغـوي يظهـر بوضـوح لقـاريء ديوانـه منـذ الجـزء الأول، و لايمكـن لـه أن يتجاهلـه، أو يغفـل وجـوده، حتـى ليشـعر أنّ ديوانـه لغـة، و أنـه خلـق تشـكيل هـذه اللغـة، التـي تـذكّرناها بشـعر الأمـويين و العباسـيين، فللجـواهري «مَلَكـة يسـتطيع بهـا أن يتخيـر مـن ألفـاظ اللغـة ما يرى أنها أبعث على إثارة المشاعر و أفعل في نفس السامع».

فكيـف لاتتكـون عنـد شـاعر أولـع هـذا الولـع بالشـعر العربـي غـزارة لغويـة تمكّنـه مـن بنـاء قصـيدته بنـاء لغويـاً محكمـاً، و تجعلـه قـادراً علـى اختيـار اللفظـة المناسـبة ، و وضـعها فـي المكـان المناسـب الـذي يـدعم الصـورة، و يزيـد غناهـا و تألقهـا، بحيـث لايمكـن للفظـة ثانيـة أن تقـوم مقامهـا، فـي غـزارة تناسـب أحيانـاً، دون أن نشـعر بعـبء كثافـة الألفـاظ التـي يوردهـا متتابعـة، كمـا في قوله يخاطب أبا العلاء المعرّي :

و هل تخبَّرتَ أن لم يألُ مُنطلـقٌ من حُرّ رأيكَ يطوي بعدك الحقبا ؟

أم أنتَ لاحِقبـاً تـدري، ولامِقَةً و لا اجتواءً ، و لا بُرءً ، و لا وصَبا؟

فهـل نقبـل هـذه الألفـاظ التـي تمتلـيء بهـا هـذه الأبيـات إلا مـن الجـواهري، لقدرتـه علـى إدخالهـا في نسيج شعري منحها حيوية و انسجاماً جعلنا لانشعر بوطأة كثافتها، و غرابة معانيها.

و يعتمـد الجـواهري فـي أكثـر مـن موضـع علـى غـزارة لغتـه و مهارتـه اللغويـة فـي رسـم صـوره، فيجيـد استحضـار الألفـاظ فـي براعـة و تمكّـن يكسـب الصـورة جماليـة منبعثـة مـن تـواتر و توليف هذه الألفاظ داخل السياق، كما في وصفه الجمال المرأة:

دَفَعَ الصدر دفعةً أعجب النهـــ ـــدين منـه طيبُ المقـام فـــرفّا

الشهيّـــان لُملمـا فاستـــــدارا فاستثارا ، فاستضريا ، فاستخفّا

و ثنـــى طيّة فضمّـر كَشحـاً و رأى فسحـــــةً فـدوَّر خَلفـــا

فمـع مـا تحملـه هـذه الصـورة مـن خيـال وثّـاب فـي تصـوّر تكـوين هـذه المـرأة، و إيقـاع موسيقي مثير كإثارة جسد هذه المرأة، تتقدم اللغة هذه التوليفة لتمنح الصورة الجمالية الأقوى.

و هـذا لا يعنـي أن كـان يخفـق أحيانـاً فـي استحضـار ألفـاظ قديمـة، لايـتمكن مـن وضـعها فـي سياقها المناسـب، فتـأتي جامـدة، لـم يـتمكن مـن منحهـا قـوّة تعبيريـة جديـدة، بـل بقيـت كمـا شـاهدناها في الاستخدام القديم لها، من مثل قوله :

و يا ليتِ بلـواكَ قُبُّ الصـدورِ و لُعـسُ الشفاهِ ، و بيـضُ الطُّلـى

فـ(قبّ الصـدور)، و (لعـس الشـفاه)، و (بـيض الطلـى)، صـفات اسـتخدمها الشـعراء القـدماء كثيـراً لوصـف جمـال جسـد المـرأة، اسـتخدمها الجـواهري لكنـه لـم يقـدّم فـي اسـتخدامه لهـا أيّ جديد. و لم يتسطع إقناعنا بمبررات العودة إليها.

و يمكن أن يجد المتابع للغة الجواهري بعض الأخطاء اللغوية، ساقها إمّا بسبب رغبته في التصرّف في اللغة، و محاولة خلق صيغ و اشتقاقات جديدة، و إما بسبب مناسبة الوزن، كجمعه (كهل) على (أكهلة) في قوله :

نفى عن الشعر أشياخاً و أكهلة يزجى بداك يراعا حبره الحرد

فالمشهور أن جمع (كهل) هو (كهول)، لكن الجواهري اضطر إلى جمعها على (أكهلة) بسبب الوزن.

فالكون اللغوي عند الجواهري، عالم خاص به يقتحمه كيفما يريد، و يتصرف به كما يشاء، يقترحه حسب مقتضيات صوره، و يتعامل معه تعامل الخبير الواثق من نفسه، و كأن له كينونة ذاتية مسيطرة رصين لا خلل فيه و لا نشاز، لأنّه «كوّن عالمه اللغوي و ثراءه اللفظي، فامتلك بذلك حريّة ابتكار الإشارة، و إبداع العبارة في إعادة الكلمة إلى بنيتها اللغوية، و وظيفتها التعبيرية نافذاً إلى أصل وظيفتها الجمالية المطلقة و الفنية المبدعة»، فجاءت لغته حيوية التعبير ذات دلالات متعددة، حتى لتظن أن شعره «تجسيد لسلطان على اللغة لا يجاري : إنّه يتصرّف بعجينة اللغة كما يشاء، و اللغة تبسط بين يديه كلّ خزينها ليعيد تشكيله أبنية و اشتقاقات بحرية رحبة و اقتدار يعيد إلى الذهن نكهة الماضة و جلال ذراه التعبيرية».

المرأة عند الجواهري فى البعد الاجتماعى والحضارى

بالنسبة للمحور الاول فإن الجواهري كان ضمن الشعراء المعدودين الذين طالبوا بتحرر المرأة من الكثير من التقاليد السائدة في عصره. والتى كانت تجلب الغبن والاحتقار لها، فطالب ودافع بكل جدية بتجديد النظرة الى مكانة المرأة ودورها في المجتمع، لاسيما في التعليم، وخاض فى وقت مبكر في النجف مع غيره من شعراء النجف الذين طالبوا بتثقيفها وتعليمها. وقد قال في هذا المجال من خلال قصيدته "علموها":

عَلِّمُوها فقد ْ كَفاكُم ْ شنارا وَ كَفَاها أن تحسبَ العِلمَ عارا

وكفانا من التقهقر أنا لم نعالج حتى الأمور الصغارا

تحكم البرلمانَ من أمم الدنيـ ـا نساءٌ تمثِّلُ الأقطارا

ونساءُ العراقِ تُمنَعُ أن تر سمَ خطاً أو تقرأ الأسفارا

والمـرأة الأم، الزوجـة، المربيـة... فـان للجـواهري معهـا مواقـف مشـرفة ورؤيـة تـدل علـى العمـق فـي الانسـانية والعلاقـة الحضـارية التـي تتطلـب النظـر إليهـا بقدسـية واحتـرام فـائقين. وعـن مربيتـه «تفاحـة» المـرأة الزنجيـة التـي كـان لهـا الأثـر الكبيـر فـي تلقين الجـواهري أسـطورة الحـب للخير والعطاء.

المرأة عند الجواهري في دائرة الإرتباط العاطفي

أمـا المحـور الثـاني مـن علاقتـه بـالمرأة، فهـو الموضـوع والقضـية، التـي قيـل فـي شـأنها الكثيـر، كيـف للجـواهري صـاحب الأسـرة العريقـة بالـدين والوجاهـة الاجتماعيـة، أن يميـل مـع العاطفـة، أن يعشـق، أن يحـب، والمجتمـع والبيئـة هـو مجتمـع النجـف، حيـث الـتحفظ وإلتزمـت فضـلاً عـن التقاليـد الموروثـة بالنسـبة للمـرأة والعلاقـة بينهـا وبـين الرجـل. ولكـن الجـواهري الـذي كـان قـد ضـاق ذرعـاً بهـذه القيـود والحـدود وهـو المتمـرد العنيـف! ولعـل تمـرده علـى واقعـه كـان يلازمـه التصـرف المتطـرف والتعامـل السـاخن مـع المـرأة فـي شـعره. وقـد هزتـه هـزات حـب عنيفـة وهـو لا يـزال بـالنجف الأشـرف وهـو كطبيعـة أي شـاعر متفجـر بـدأت ثـورة الشـعر تنمـو فيـه شيئاً فشيئاً يصاحبها دوافع داخلية نحو مملكة العشق والغرام.

وهنـا يبـدأ تمـرده علـى البيئـة، التقاليـد، الأعـراف، الضـوابط الشـرعية وينـزع ثوبـه البـالى ليبـدأ مسيرة أخرى:

أنا إنْ كنتُ مرهقـاً في شبابِي مُثقلاً بالهمـومِ والأَوْصَابِ

فمتـى أعرف الطلاقة والأنس ألمـا أكـون تحت التراب

«فهـو أحـب النسـاء كثيـراً، الا أن حبّـه أيـاهن كـان لـه مزايـاه الخاصـة جـداً، مزايـا الشخصـية الحـادة، المـزاج، رقتهـا او عنفهـا وبتعبيـر آخـر الشخصـية المتطرفـة فـي تعاملهـا مـع النـاس والأشـياء، علاقـة الجـواهري بالنسـاء علاقـة اشـكالية معقـدة محفوفـة بالمخـاطر، وكـم مـرة تـراه فيها يذوب جداً حيال حضور امرأة جميلة».

ومـن هنـا جـاءت فتـرة الغـزل المكشـوف أو المـاجن فـى قصـائده ابتـداءً بـ«جربينـى» و«النزغـة» و«ليلـة معهـا» و «وادى العـرائس»، «بنـت بيـروت»، و«عريانـة» و«صـورة للخـواطر»، وغيرهـا مـن القصـائد الماجنـة، وتمتـاز هـذه القصـائد بدقـة تصـوير مفـاتن المـرأة وجسـدها وتصـوير هـذا الجسـد تصـويراً غريزيـاً، جنسـياً ذات عاطفـة حسـية لا تهـدف الا لتحقيـق المرام مع المرأة واعتبارها وسيله للتمتع واللذة و لا غير.

ظاهرة الرفض والتمّرد عند الجواهري

مـن هنـا ننتقـل إلـى صـلب الموضـوع ونعـالج «ظـاهرة الـرفض والتمـرّد عنـد الجـواهري» تفصـيلاً؛ لأنـه يعـدّومن أشهرشـعراء الـرفض والتمـرّد بسـبب عـدم رضـايته عـن الحكّـام والأوضـاع الاجتماعية والسياسية في العراق المعاصر.

«إن التمـرّد مـن أهـم خصـائص الجـواهري علـى الصـعيد الفكـري والفنـي، حيـث يثـور علـى المجتمـع وشـعبه وتقاليـده وسـننه ؛ وقـد دلّـت علـى ذلـك قصـائده الأولـى نحـو«المتمـرّدون» و«عنـاد» و«الـوطن الشـباب» و... والتمـرّد والـرفض حركـة تسـتدعى ضـمنياً وجـود قيمـة يسـتغلّها غيـره، سـواء عنـده أوعنـد الآخـرين، فيتوّلـد لديـه نـوع مـن الاضـطهاد، فينـدمج مـع الـذات المضـطهدة دفاعـاً عـن هـذا الكيـان، ويقـف وجهـاً لوجـه صـدى قـوي الاسـتغلال، وإذا مـايئس إنتهـى إلى الصّمت الذي يفسّر بالعبث».

«ولقـد رفـض الجـواهري القـيم الملتبسـة، الزائفـة، الباعثـة علـى الاسـتكانة، فـي مجتمـع تتجاوز فيه، بل وتتداخل حدّ التشابك البداوة من جهة وتتجاذبه الحضارة من الجهة الثانية».

هكـذا رفـض الشـاعر القـيم الملتبسـة الباعثـة علـى الجمـود والاسـتكانة، فـي مجتمـع تتـداخل فيـه البـداوة بالحضـارة، والحجـاب بالسـفور والمحافظـة بالحداثـة. والتمـرّد جعـل الجـواهري مـدافعاً عـن غيـره أقـوى مـن نفسـه، لأنّـه يرضـى أن يقـدّم نفسـه ضـحيّة فـي بعـض الحـالات، ولكنـه يـرفض أن تسحق طبقة بكاملها، بحيثُ هذه الضحيّة تتجاوز ذاتها إلى الجماعة :

لم يبَقَ شيءٌ لَم نَقُلهُ تَشكّيـاً ... فيما مَضَى بالمُصرحاتِ وبالكُنَى

كنّا نَقُولُ لَهُم حَذَارِ مِنَ اللَّظَى ... إمّا اعتَلَـى ومِنَ اللَّهيب إذا ادَّنَـى

ومِنَ السُّجون الدّاجياتِ فانَّها ... كـانـت وَ مَـازالَـت لِبـاغٍ مِدفَنَـا

وَ مِنَ السّيَاط فإنّ حرّ نشيدها ... بنهـايـة الجـــلاّد كـان مَلَحَّنـا

ومـن أبعـاد التمـرّد عنـد الجـواهري الغليـان الـداخلي، فهويسـقط هـذا الإحسـاس المشـبوب علـى عناصـر الطبيعيّـة كالنخيـل والنهـر، كمـا نـرى فـي قصـيدة «يـا دجلـة الخيـر» وأحيانـاً يعـارض الجواهري السياسة والسياسيين ويعتبر الحكم لعبة بيدهم على حدّ قوله :

هُوالحكمُ ـ إن حَقَّقتَ ـ لُعبَةُ لاَعِبِ ... يسّمـون ترقيعـاتـه بـالتَّجَـاربِ

فتـجـربـةُ لِلحُـكـمِ خَـلـقُ مـؤظـف ... وتجـربةُ للشّعبِ تخريـــجُ نَائبِ

فمادام حُكمٌ للتَّجاريب راهنُ فَلَيسَ لَنا غَيرَ انتِظَارِ العَوَاقِبِ

ويظلّ التحدّي طاغياً في الشعرالجواهري، كثيراً ما يدفعه إلى المغامرة، فيدفع ثمنها بالمحاكمة والسجن والتشريد، أليس هوالقائل : «في نفسي شيءٌ من المغامرة، وأنا كنت ما أزال ميّالاً إلى المغامرة، خاطئةً كانت أم مصيبةً».

الخاتمـــة :

إن البحث عن "الشعرية " هو – في جانب كبير منه – بحث في لفة الشعر هل نقول إنهه تفكيك للعبارة الشعرية بغية العثور بين مكوناتها الصغيرة ، أو في هذه المكونات ،عن ذلك اللهب الخفي، أو الغامض ، أو الكامن ، الذي نطلق عليه اسم الشعر أو "الشعرية "؟ وما الذي يجذبنا الى ذلك اللهب ؟ ما الذي يجعلنا نتقدم نحوه أو نتدبر خطواتنا في اتجاهه ؟

تفكيك العبارة الشعرية ، أهو الذي يتيح لنا أن نفتح أبوابا سرية الى فتنة الشعر وسحره ؟ أم أن انجذابنا الى ذلك السحر، انجذابا عفويا وغامرا، هو الذي يغرينا بالتفكيك بحثا عن الأسرار المتنوعة ؟ وفي رأس هذه الأسرار أسرار انجذابنا الذي لا نعرف له تفسيرات كافية.

المراجع :

1- ابـن الأثيـر ، ضـياءالدين نصـراله، المثـل السـائر فـي أدب الكاتـب و الشـاعر، نهضـة مصـر – القاهرة ، 1959 م.

2- البصري، ميرشاؤل، أعلام الأدب في العراق الحديث، دارالحكمة ، 1994.

3- دينيــة، وينيــک؛ أوســتن، واريــن، نظريــة الأدب ، ترجمــة محيــي الــدين صــبحي المجلــس الأعلى للآداب و الفنون، دمشق، مطبعة خالد الطرابيشي، ط1، 1972.

4- شعبان، عبدالحسين، جدل الشعر و الحياة، بيروت، دارالكنوز الاسلامية، 1997 م.

5- شـكيب انصـاري، محمـود، تطـور الأدب العربـي المعاصـر، دانشـگاه شـهيد چمـران، اهـواز، 1382هـ.ش.

6- عبـاس علـوان، علـي، تطـور الشـعر العربـي الحـديث فـي العـراق، بغـداد، وزارة الأعـلام، بدون تاريخ

7- عبـداللطيف، محمدحماسـة، لغـة الشـعر دراسـة فـي الضـرورة الشـعرية، دار الشـروق ، ط1، 1996م.

8- كامو، البير، الانسان المتمرّد ، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات، ط3، 1988 م.

9- كوين ، جون ، بناء لغة الشعر، ترجمي أحمد درويش، مكتبية الزهراء، 1990 م.

10- مؤسسه البابطين، معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، ط3.

11- الورقي، سعيد، لغة الشعر العربي الحديث، دار المعرفة الاسكندرية ، مصر، 2005.